شرح حديث

«ماذئبان جائعان»

[ق١/أ]

/ بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، وصلَّى اللَّه على سيدنا محمدٍ وآله وصحبهِ أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العلامةُ شيخُ الإسلامِ بقيةُ السَّلفِ الكرامِ زينُ الدين أبو الفرجِ عبدُ الرحمنِ ابن الشيخِ الإمام شِهابِ الدين أحمدَ ابنِ الشيخ الإمام ابنِ رجب البغدادي الحنبلي - رحمه اللَّه تعالى:

خرّج الإمامُ أحمدُ(١) والنَّسائي(٢) والترمذيُّ(٣) وابنُ حبانَ(٤) في «صحيحه» من حديث كعب بنِ مالكٍ الأنصاريِّ - رضي اللَّه عنه - عن النَّبيِّ ﷺ قالَ:

«مَا ذِئْبانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا في غَنمٍ بأفسدَ لَها مِنْ حِرْصِ المرءِ عَلَى المالِ والشَّرفِ لدينِهِ».

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح.

ورُوِيَ من وجهٍ آخر عن النبيِّ ﷺ من حديثِ ابنِ عمرَ، وابنِ عباسٍ، وأبي هريرةَ، وأسامةَ بنِ زيدٍ، وجابرٍ، وأبي سعيد الخدريِّ، وعاصمِ بنِ عدي الأنصاريِّ - رضي اللَّه عنهم أجمعين.

وقد ذكرتها كلَّها والكلامَ عليها في كتابِ «شرح الترمذي».

ولفظُ حديثِ جابر: **«ما ذئبانِ ضَاريانِ يأتيا في غنمٍ غابَ رعاؤُها بأفسدَ للناس من حبِّ الشَّرفِ والمالِ لدينِ المؤمن».**

---

(١) في «المسند» (٣/٤٥٦، ٤٦٠).

(٢) في «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨/١١١٣٦).

(٣) في «الجامع» (٢٣٧٦).

(٤) كما في «الإحسان» (٣٢٢٨).

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: «**حب المال والشرف**» بدل «**الحرص**».

فهذا مثلٌ عظيمٌ جدًّا ضربه النبيُّ ﷺ لفسادِ دينِ المسلم بالحرص على المالِ والشَّرفِ في الدنيا، وأن فسادَ الدين بذلك ليسَ بدونِ فسادِ الغنمِ بذئبين جائعين ضاريين يأتيا في الغنمِ، وقد غابَ عنها رعاؤها ليلًا، فهما يأكلانِ في الغنمِ ويفترسانِ فيها.

ومعلومٌ أنَّه لا ينجو من الغنم مِن إفساد الذئبينِ المذكورين والحالة هذه إلا قليلٌ، فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ حرصَ المرءِ على المالِ والشَّرفِ: إفساده لدينه ليس بأقلَّ من إفسادِ الذئبين لهذه الغنمِ؛ بل إمَّا أن يكونَ مساويًا وإما أكثر، يشيرُ إلى أنَّه لا يسلمُ من دينِ المسلم مع حرصهِ على المالِ والشَّرفِ في الدنيا إلا القليل، كما أنَّه لا يسلمُ من الغنم مع إفساد الذئبينِ المذكورين فيها إلا القليل.

فهذا المثلُ العظيمُ يتضمنُ غايةَ التَّحذيرِ من شرِّ الحرصِ على المالِ والشَّرفِ في الدنيا.

فأمَّا الحرصُ على المالِ فهو على نوعين:

أحدهما: شدةُ محبةِ المالِ مع شدةِ طلبهِ من وجوهه المباحةِ، والمبالغة في طلبهِ والجدِّ في تحصيلهِ واكتسابهِ من وجوهه مع الجهدِ والمشقةِ.

وقد وردَ أنَّ سببَ الحديثِ كان وقوع بعض أفرادِ هذا النوع، كما أخرجه الطبرانيُّ / من حديثِ عاصم بنِ عديٍّ، قال: «**(اشتريتُ)**(*) **مائةَ سهم من سهامِ خيبر، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: مَاذئبانِ ضاريان في غنمٍ أضاعَها ربُّها بأفسدَ من طلبِ المسلمِ المالَ والشَّرفَ لدينهِ**». [ق/١ب]

ولو لم يكنْ في الحرصِ على المال إلَّا تضييعُ العمرِ الشَّريفِ الذي لا قيمةَ له، وقد كان يمكنُ صاحبه اكتساب الدرجاتِ العلى والنَّعيم المقيم، فضيَّعَه الحريص في طلبِ رزقٍ مضمونٍ، مقسومٍ لا يأتي منه إلا ما قُدِّرَ وقُسِّمَ، ثم

(*) شريت: «نسخة».

لا ينتفعُ به؛ بل يتركُه لغيرهِ ويرتحل عنه، ويبقى حسابُه عليه ونفعُه لغيرهِ، فيجمعُ لمن لا يحمدُه، ويقدم على من لا يعذرُه، لكفى بذلك ذمًّا للحرصِ.

فالحريصُ يضيعُ زمانَه الشريفَ، ويخاطرُ بنفْسه التي لا قيمةَ لها في الأسفارِ وركوبِ الأخطارِ؛ لجمعِ مالٍ ينفع به غيرُه.

كما قِيل:

ولا تحسبن الفقر من فقد الغنى ولكن فقد الدين من أعظم الفقر

قِيلَ لبعض الحكماءِ: إنَّ فلانًا جمعَ مالًا. فقالَ: فهل جمعَ أيامًا ينفقُه فيها؟ قيل: ما جمعَ شيئًا.

وفي بعضِ الآثارِ الإسرائيلية: الرزقُ مقسومٌ والحريصُ محرومٌ، ابنَ آدمَ، إذا أفنيتَ عمرَك في طلبِ الدنيا، فمتى تطلبُ الآخرةَ؟!

إِذَا كنت في الدُّنيا عَنِ الخيرِ عاجزًا
فما أنتَ في يومِ القيامةِ صانعُ

قال ابنُ مسعودٍ: اليقينُ أن لا تُرْضي النَّاسَ بسخطِ اللَّه، ولا تحمد أحدًا على رزقِ اللَّه، ولا تلوم أحدًا على ما لم يُؤْتِك اللَّه، فإنَّ رزق اللَّه لا يسوقُه حرصُ حريصٍ ولا يردُّه كراهةُ كاره، فإنَّ اللَّه بقسطهِ وعلمه جعلَ الروحَ والفرحَ في اليقينِ والرضى، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ.

وقال بعضُ السَّلف: إذا كان القدرُ حقًّا فالحرصُ باطلٌ، وإذا كان الغدرُ في الناس طباعًا فالثقةُ بكلِّ أحدٍ عجزٌ، وإذا كان الموتُ لكلِّ أحد راصدًا فالطمأنينةُ إلى الدنيا حمق.

كان عبدُ الواحد بنُ زيد يحلفُ باللَّه: لحرصُ (المرءِ)(*) على الدنيا أخوفُ عليه عندي من أعدى أعدائهِ.

(*) المؤمن: «نسخة».

وكان يقولُ : يا إخوتاه ، لا تغبطوا حريصًا على ثروة ولا سعة في مكسبٍ ولا مالٍ ، وانظروا إليه بعينِ المقتِ له في (اشتغالهِ)(*) اليومَ بما يرديه غدًا في المعادِ ثمَّ يبكي ، ويقولُ : الحرصُ حرصانِ : حرصٌ فاجعٌ ، وحرصٌ نافعٌ ؛ فأما النَّافعُ : فحرصُ المرءِ على طاعةِ اللَّه .

وأما الفاجعُ : فحرصُ المرءِ على الدنيا مشغولٌ معذبٌ لا يسرُّ ولا يلتذُّ بجمعهِ لشغله ، ولا يفرُغُ من محبته الدنيا لآخرتهِ ، كذلك وغفلتهِ عما يدومُ / ويبقى . [ق٢/أ]

ولبعضِهم في المعنى :

لا تغبطنَّ أخا حرصٍ على سعةٍ
وانظرْ إليهِ بعينِ الماقتِ القالي
إنَّ الحريصَ لمشغولٌ بشقوته
عن السُّرورِ بما يحوي من المالِ

وأنشد آخر في المعنى :

يا جامعًا مانعًا والدهرُ يرمقُه
مفكرًا أيُّ بابٍ منه يغلقُه
جمعتَ مالاً ففكرْ هل جمعتَ له
يا جامعَ المالِ أياما تفرقُه
المالُ عندَك مخزونٌ لوارثهِ
ما المالُ مالك إلا يومَ تنفقُه
إنَّ القناعةَ من يَحللْ بساحتِها
لم (ينل)(**) في ظلِّها همًّا يؤرقُه

(*) انشغاله : « نسخة » .

(**) يلق : « نسخة » .

كتبَ بعضُ الحكماءِ إلى أخٍ له كان حريصًا على الدنيا: أما بعد؛ فإنَّك أصبحتَ حريصًا على الدنيا، تخدمُها وهي تزجرك عن نفسِها بالأعراضِ والأمراضِ والآفاتِ والعلل، كأنَّك لم ترَ حريصًا محرومًا، ولا زاهدًا مرزوقًا، ولا ميتًا عن كثيرٍ، ولا متبلغًا من الدنيا باليسيرِ.

عاتبَ أَعرابيٌّ أخاه على الحرصِ، فقالَ له: يا أخي، أنت طالبٌ ومطلوبٌ، يطلبك من لا تفوتُه وتطلبُ أنت من قد كُفِيتَه، يا أخي ألم ترَ حريصًا محرومًا وزاهدًا مرزوقًا.

وقال بعضُ الحكماء: أطولُ النَّاسِ همًّا الحسودُ، وأهنؤُهم عيشًا القنوعُ، وأصبرُهم على الأذى الحريصُ، وأخفضُهم عيشًا أرفضُهم للدنيا، وأعظمُهم ندامةً العالمُ المفرط.

ولبعضِهم في هذا المعنى:

الحرصُ داءٌ قد أضـ ـرَّ بمن ترى إلا قليلًا
كم مِنْ عزيز قد صيَّرَه الحرص ذليلًا

ولغيره:

كم أَنتَ للحر صِ والأماني عَبْدُ
ليسَ يجدي الحرصُ والسَّعيُ (إذا)(*) لم يكن (جَدُّ)(**)
ليس لما قدره اللَّه من الأمر بُدُّ

ولأبي العتاهيةِ يخاطب سلمًا الخاسر:

تعالى اللَّه يا سلمُ بن عَمْرِو
أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

(*) إذ: «نسخة».

(**) بد: «نسخة».

ومن كلامِ المأمونِ : الحرصُ مفسدةٌ للدينِ والمروءةِ .

وأنشدَ شعرًا :

حـرصُ الحريـصِ جـنـونُ والـصَّـبـرُ حـصـنٌ حـصـينُ
إنِ قـدَّرَ الـلَّـه شـيـئًـا (لا بـد مـن أن يـكـونُ)(*)

غيره :

حتَّى متى (أنا)(**) في حلٍّ وترحالِ
وطـولِ سـعـي وإدبـارٍ وإقـبـالِ
ونازحُ الدَّارِ لا (ينفكُّ)(***) مغتربًا
عـن الأَحـبـةِ لا يـدرونَ مـا حـالِ
بمشرقِ الأَرضِ طورًا ثم مغربِها
لا يخطرُ الموتُ من حرصٍ على بال
ولو قنعت أتاني الرزقُ في دعةٍ
إِنَّ القنوعَ الغَنِيُّ لا كثرة المالِ

غيره :

أَيُّـهـا المتـعـبُ جـهـدًا لـنـفـسـه
يـطـلـبُ الـدنـيـا حـريـصًـا جـاهـدًا
[ق٢/ب] / لا لك الدُّنيا ولا أنتَ لها
فـاجـعـل الـهـمَّـيـنِ هـمًّـا واحـدًا

(*) فإنه سيكون : « نسخة » .
(**) أنت : « نسخة » .
(***) تنفك : « نسخة » .

النَّوعُ الثَّاني من الحرص على المال :

أن يزيدَ على ما سبق ذكرُه في النوعِ الأول ، حتى يطلبَ المال من الوجوه المحرمة ويمنع الحقوقَ الواجبة ، فهذا من الشحِّ المذموم .

قال اللَّه تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولَئِكَ هُمُ المفْلحونَ﴾[1] .

وفي « سنن أبي داودَ »[2] عن عبدِ اللَّه بنِ عمر ، عن النبي ﷺ قال : « **اتَّقوا الشُّحَ ؛ فإنَّ الشحَّ أهلك من كان قبلكم ، أمرَهم بالقطيعةِ فقطعوا ، وأمَرهم بالبخلِ فبخلوا ، وأمرَهم بالفجورِ ففجروا** » .

وفي « صحيح مسلم »[3] عن جابرٍ عن النبي ﷺ قال : « **اتَّقوا الشحَّ ؛ فإنَّ الشحَّ أهلكَ من كان قبلكم ، حملَهم على أن سفكوا دماءَهم ، واستحلُّوا محارمَهم** » .

قال طائفةٌ من العلماءِ : الشحُّ هو الحرصُ الشديدُ الذي يحمل صاحبَه على أن يأخذَ الأشياءَ من غيرِ حلِّها ويمنعها من حقوقها .

وحقيقتُه (شَرَهُ)[*] النَّفس إلى ما حرَّمَ اللَّه ومنع منه ، وأن لا يقنعَ الإنسانُ بما أحل اللَّه له من مالٍ أو فرجٍ أو غيرهما ، فإنَّ اللَّه تعالى أحلَّ لنا الطيبات من المطاعم والمشارب ، والملابسِ والمناكح وحرَّمَ علينا تناولَ هذه الأشياء من غير وجوه حلِّها ، وأباحَ لنا دماءَ الكفارِ والمحاربين وأموالَهم ، وحرَّمَ علينا ما عدا ذلك من الخبائثِ من المطاعمِ والمشارب ، والملابس والمناكح ، وحرم علينا أخذَ الأموال وسفك الدماء بغير حلها .

فمن اقتصرَ على ما أبيحَ له فهو مؤمنٌ ، ومن تعدَّى ذلك إلى ما منعَ منه فهو الشحُّ المذمومُ ، وهو مناف للإيمان .

ولهذا أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الشحَّ يأمرُ بالقطيعةِ والفجورِ وبالبخل .

---

(١) الحشر : ٩ .
(٢) برقم (١٦٩٨) .
(٣) برقم (٢٥٧٨) .
(*) أن تسترضي : « نسخة » .

والبخل هو إمساكُ الإنسان ما في يده.

والشحُّ: تناولُ ما ليس له ظلمًا وعدوانًا من مالٍ أو غيره، حتَّى قيل: إنَّه رأسُ المعاصي كلُّها.

وبهذا فسَّر ابنُ مسعودٍ وغيره من السَّلفِ الشحَّ والبخلَ.

ومن هنا يُعلمُ معنى حديثِ أبي هريرةَ رضي اللَّه عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يجتمعُ الشحُّ والإيمانُ في مؤمنٍ**»[1].

والحديثُ الآخرُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**أفضلُ الإيمانِ الصَّبرُ والسماحةُ**»[2].

وَفُسِّر الصبرُ بالصبرِ عن المحارم، والسماحةُ بأداءِ الواجباتِ.

وقد يُستعملُ الشحُّ بمعنى البخلِ وبالعكسِ، لكنَّ الأصلَ هو التفريقُ بينهما على ما ذكرناه.

ومتى وصلَ الحرصُ على المالِ إلى هذه الدرجة، نقص بذلك الدينُ والإيمانُ نقصًا بيِّنًا فإنَّ مَنْعَ الواجباتِ وتناولَ المحرماتِ ينقصُ بهما الدينُ والإيمانُ بلا ريبٍ حتى لا يبقى منه إلا القليل جدًّا.

[ق٣/أ] وأمَّا حرصُ المرءِ على الشَّرفِ فهذا أشدُّ (هلاكًا)(*) من الحرص على المال / فإنَّ طلبَ شرفِ الدنيا والرفعةِ فيها، والرياسةِ على النَّاسِ والعلو في الأرضِ أضرُّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٦، ٤٤١، ٤٤٢)، والنسائي(٦/١٣ - ١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٨٥)، وابن ماجه (٢٧٩٤) من حديث عمرو بن عبسة.
وأخرجه أحمد (٥/٣١٨) من حديث عبادة بن الصامت.
وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/٥٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣/٦٢٦) من حديث عمير بن قتادة الليثي.
وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٣٣)، وابن عدي في «الكامل» (٧/١٥٥) من حديث جابر.

(*) اهلاكًا: «نسخة».

على العبدِ من طلبِ المال، وضررُه أعظمُ، والزهدُ فيه أصعبُ، فإنَّ المالَ يبذلُ في طلبِ الرياسةِ والشَّرفِ.

والحرصُ على الشَّرفِ على قسمين:

أحدهما: طلبُ الشَّرفِ بالولايةِ والسُّلطانِ والمال.

وهذا خطرٌ جدًّا، وهو الغالبِ، يمنعُ خيرَ الآخرةِ وشرَفَها وكرامَتها وعزَّها.

قال اللَّه تعالى: ﴿تلكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعلُها للذينَ لا يُريدُونَ عُلوًّا في الأَرضِ ولا فَسَادًا ...﴾[1] الآية.

وقلَّ مَنْ يحرصُ على رياسةِ الدنيا بطلبِ الولاياتِ فوفق؛ بل يُوكلُ إلى نفسهِ، كما قال النبيُّ ﷺ لعبدِ الرحمنِ بنِ سمرةَ: «**يا عبدَ الرحمنِ، لا تسألِ الإمارةَ، فإنَّك إن أُعْطيتَها عن مسألةٍ وُكلتَ إليها، وإنْ أُعطيتَها من غيرِ مسألةٍ أُعنتَ عليها**»[2].

قال بعضُ السَّلفِ: ما حرصَ أحدٌ على ولايةٍ فعدل فيها.

وكان يزيدُ بنُ عبدِ اللَّه بنِ موهبٍ من قضاةِ العدلِ والصَّالحين، وكان يقولُ: من أحبَّ المالَ والشَّرفَ وخافَ الدوائِرَ لم يعدلْ فيها.

وفي «صحيح البخاريِّ»[3] عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنكم سَتحرصونَ على الإمارةِ، وستكونُ ندامةً يومَ القيامةِ، فنعم المرضعةُ، وبئستِ الفاطمةُ**».

وفيه[4] - أيضًا - عن أبي موسى الأشعريِّ «**أنَّ رجلين قالا للنبيِّ ﷺ: يا رسول اللَّه، أَمِّرنا. قال: إنَّا لا نولي أمرَنا هذا من سألَه، ولا من حرصَ عليه**».

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) برقم (٧١٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (١٧٣٣).

واعلمْ أَنَّ الحرصَ على الشَّرفِ يستلزمُ (شرًا)(*) عظيمًا قبلَ وقوعه (في السَّعي)(**) في أسبابِهِ، وبعدَ وقوعِهِ بالخطر العظيم الذي يقعُ فيه صاحبُ الولايةِ من الظلمِ والتكبرِ وغير ذلك من المفَاسدِ.

وقد صنَّفَ أبو بكر الآجري - وكان من العلماءِ الرَّبَّانيين في أَوائلِ المائةِ الرابعة - مصنفًا في «أخلاقِ العلماءِ وآدابهم» وهو من أجلِّ ما صُنِّف في ذلك، ومن تأمَّله علمَ منه طريقةَ السَّلفِ من العلماء، والطرائقَ التي حَدَثتْ بعدَهُم المخالفةَ لطريقتهم، فوصفَ فيه عالمَ السوء بأوصافٍ طويلة.

منها: أنَّه قال: قد فتنه حبُّ الثناءِ والشَّرفِ والمنزلةِ عند أَهلِ الدنيا، يتجملُ بالعلمِ كما يتجمل بالحلةِ الحسناء للدنيا، ولا يجمِّل علمَه بالعمل به.

[ق٣/ب] وذكر كلامًا طويلًا إلى أن قال: فهذه الأخلاقُ وما يشبهُها / تغلبُ على قلب من لم (ينتفعْ)(١) بالعلم، فبينا هو مُقاربٌ لهذه الأَخلاقِ إِذ رَغبتْ نفسُه في حبِّ الشرفِ والمنزلةِ، فأحبَّ مجالسةَ الملوكِ وأَبناءِ الدنيا، (فأحب)(٢) أن يُشاركَهم فيما هُم فيهِ (من منظرٍ)(٣) بَهيٍّ، ومَركبٍ هَنيٍّ، وخادم سَرِيٍّ، ولباسٍ لَينٍ، وفِراشٍ ناعمٍ، وطعام شَهيٍّ، وأَحبَّ أَن (يُعتنى به)(٤)، وأن (يسمع)(٥) قَولُه، ويُطاعَ أَمرُه، فَلم يَقدرْ عَليهِ إلا مِن جهةِ القَضاءِ فَطلبَهُ، فَلم يُمكنْهُ إلا بِبذلِ دينهِ، فَتذلَّلَ لِلمُلوكِ وأتباعِهِم، (فَخدمَهُم)(٦) بِنفسهِ، وأَكرمَهُم بِمالِهِ، وسَكتَ عَن قَبيحِ مَا ظهرَ (من منازل أبوابهم، وفي منازلهم وفعلهم)(٧)، ثم زينَ لَهم كثيرًا من قَبيحِ (فِعلهم بتأوُّلِهِ)(٨) الخطأَ ليحسن

(*) من النسخة «ك» وليست في النسخ الثلاث الأخرى.

(**) بالسعي: «نسخة».

(١) يتضمخ: «نسخة».

(٢) وأحب: «نسخة».

(٣) من رخاء عيشهم من منزلٍ: «نسخة».

(٤) يغشى بابه: «نسخة».

(٥) يُشتَمَعَ: «نسخة».

(٦) وخدمهم: «نسخة».

(٧) من مَناكِرهم على أبوابهم وفي منازلهم ومن قولهم وفعلهم: «نسخة».

(٧) أفعالهم بتأويله: «نسخة».

(موقعه)[1] عِندَهم، فَلمَّا فعلَ هذه مُدةً طَويلةَ واسْتحكمَ فيهِ الفسادُ وَلّوْهُ القضاءَ فذبح بِغيرِ سِكينٍ، فصارتْ لَهُم عليهِ مِنَّةٌ عظيمةٌ، ووجبَ عليه شُكرُهم، (فآلمَ نفسه)[2] لئلَّا (يُغضبهُم)[3] عليه فَيعزلوهُ عن القضاءِ، ولم يَلتفتْ إلى غَضبِ مَولاهُ، فاقْتطعَ أموالَ اليتامَى والأَراملِ، والفُقراءِ والمساكين، وأموالَ الوَقفِ الموقوفة على المجاهدينَ، وأهلِ الشرفِ بالحرمينِ، وأموالًا يعودُ نَفعُها على جميعِ المسلمينِ، فأرضى بها الكاتبَ والحاجبَ والخادمَ، فأكلَ الحرامَ وأطعمَ الحرامَ وكَثُرَ الداعي عليهِ، فالويلُ لمن أورثَه علمُه هذهِ الأخلاقَ.

هذا (العلمُ)[4] الذي استعاذَ منه النبيُّ ﷺ وأمر أن يُستعاذَ منهُ، وهذا (العلم)[4] الذي قالَ فيهِ - عليه الصلاة والسلام - : «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عذابًا يوم القيامة، عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّه بِعِلْمِهِ**»[5].

وكانَ ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ**»[6].

وكان عليه السلامُ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**»[7].

هذا كُلُّهُ كَلامُ الإمام أبي بَكرٍ الآجُرِّي - رحمه اللَّه تعالى - وكان في أَواخرِ الثلاثِمائة، ولم يَزَلِ الفسادُ (مُتزايدًا)[*] على ما ذَكرناهُ أضعافًا مُضاعفةً، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّه.

---

(١) موقفه: «نسخة».
(٢) فألَمَ بنفسه: «نسخة».
(٣) يغيظهم: «نسخة».
(٤) العالم: «نسخة».
(٥) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٥٨/٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٧٩)، والطبراني في «الصغير» (٥٠٧) من حديث أبي هريرة.
(٦) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم، وأخرجه أحمد (٣٤٠/٢، ٣٦٥، ٤٥١)، وأبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٢٦٣/٨، ٢٨٤)، وابن ماجه (٣٨٣٧) من حديث أبي هريرة.
(٧) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٤٤/٤) من حديث جابر.
(*) بعده يتزايد: «نسخة».

ومن دَقيقِ آفاتِ حُبِّ الشرفِ : طَلَبُ الولاياتِ والحرصُ عليها ، وهو بابٌ غامضٌ لا يعرفُه إلا العلماءُ باللَّه ، العَارفونَ بهِ المحبُّونَ لهُ ، الذينَ يُعادون لهُ من جُهَّالِ خلقهِ المزُاحمينَ لِربُوبيتهِ وإلهيتهِ ، مع حقارتهم وسُقوطِ منزلتهمِ عندَ اللَّه ، [ق٤/أ] وعندَ / خَواصِّ عبادهِ العَارفين بهِ .

كما قال الحسنُ - رحمه اللَّه - فيهم : إِنَّهُمْ وَإِن طقطَقَتْ[1] بهم البغالُ وهملجَت[2] بِهِمُ الْبرَاذِينُ[3] فَإِنَّ ذُلَّ المعصيةِ في رِقَابهم ، أبى اللَّه إلَّا أن يُذلَّ مَنْ عصاهُ .

واعلمْ أَنَّ حُبَّ الشرفِ بالحرصِ على نُفوذِ الأمرِ والنهي وتَدبيرِ أَمرِ الناسِ ، إذا (قصدَ)[*] بذلك مُجردَ عُلوِّ المنزلة على الخلقِ والتَّعاظم عَليهم ، وإظهارِ صاحب هذا الشرفِ حاجةَ الناس إليه وافتقارهم إليه ، وذُلّهم له في طلبِ حوائجِهم منه ، فهذا نفسُه مُزاحمةٌ لرُبوبيةِ اللَّه تعالى وإلهيتهِ ، وربما تسبب بعضُ هؤلاءِ إلى إيقاع الناس في أمرٍ يحتاجُون فيهِ إليهِ ؛ ليضطرَّهُم بذلك إلى رفع حاجاتهم إليه ، وظهورِ افتقارهم واحتياجِهم إليهِ ، ويتعاظمُ بذلك ويتكبَّرُ بهِ ، وهذا لا يَصلحُ إلا للَّه تعالى وحده لا شريكَ له .

كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[4] .

وقال : ﴿وَمَا أَرْسلنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[5] .

وفي بعض الآثارِ أنَّ اللَّه تعالى يبتلي عبدهُ بالبلاءِ ليسمعَ تضرعهُ .

---

(١) الطقطقة : صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة . « اللسان » مادة : (طقطق) .

(٢) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة وبخترة . « اللسان » مادة : (هملج) .

(٣) البرذون من الخيل : ما كان من غير نتاج العرب . « اللسان » مادة : (برذن) .

(*) كان القصد : « نسخة » .

(٤) الأنعام : ٤٢ .

(٥) الأعراف : ٩٤ .

وفي بعض الآثارِ - أيضًا - أن العبدَ إذا دعا اللَّه وهو يُحبهُ قال اللَّه: «يا جِبْرِيلُ، لَا تَعْجَلْ بِقَضَاءِ حاجتهِ، فَإِنِّي أحبُّ أن أَسمعَ تضرعَهُ».

فهذه الأمورُ أصعبُ وأخطرُ من مجردِ الظلمِ وأدهى من الشِّركِ، والشركُ أعظمُ الظُّلم عند اللَّه.

وفي «الصحيح»[1] عن النبيّ ﷺ قال: «**يَقُولُ اللَّه تَعَالَى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائي، والْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا عَذَّبْتُهُ**».

كان بعضُ المتقدمينَ قاضيًا، فرأى في منامهِ كأنَّ قائلًا يقول: أَنتَ قاضٍ، واللَّه قاضٍ. فاستيقظَ مُنزعجًا، وخرجَ عن القضاءِ وتركهُ.

وكان طائفةٌ مِن القضاةِ الورعين يمنعونَ الناسَ أن يدعوهم بـ «قاضي القُضاة»، فإن هذا الاسمَ يُشبهُ مَلِكَ الملوكِ الذي ذمَّ النبيُّ ﷺ التَّسميةَ به. وقال: «**لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّه**»[2].

و «حاكمُ الحُكَّامِ» مِثلُه، أو أَشدُّ منه.

ومن هذا البابِ - أيضًا - أن يُحبَّ ذُو الشرفِ والولايةِ أَن يُحْمَدَ على أفعالهِ ويُثْنى عليهِ بها، ويطلبُ من الناسِ ذلك، ويَتَسببُ في أَذى من لا يُجيبُه إليهِ، ورُبما كانَ ذلكَ الفعلُ إلى الذمِّ أقربَ منهُ إلى المدحِ، وربما أظهرَ أمرًا حسنًا في الظاهرِ، وأحبَّ المدحَ عليه وقصدَ بهِ في الباطنِ شرًّا، (وفَرِحَ بتمْويهِ)(*) ذلكَ وترويجه على الخلقِ.

/ وهذا يدخلُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ الآية[3]. [ق٤/ب]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٥)، ومسلم (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة.

(*) وقصد تمويه: «نسخة».

(٣) آل عمران: ١٨٨.

فإنَّ هذه الآيةَ إنما نزلتْ فيمن هذه صفاتُهُ، وهذا الوصفُ - أَعني طلبَ المدح مِنَ الخلقِ ومحبَّتَهُ والعقوبةَ على تركهِ - لا يصلحُ إلَّا للَّه وحدهُ لا شريكَ لهُ، ومن هنا كان أئمةُ الهدى ينهونَ عن حمدهِم على أعمالهم وما يصدُرُ منهم من الإحسانِ إلى الخلقِ، ويأمرونَ بإضافةِ الحمدِ على ذلك إلى اللَّه وحدهُ لا شريكَ لهُ، فإن النِّعم كلَّها منهُ.

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ - رحمه اللَّه - شديد العنايةِ بذلكَ، وكتبَ مرةً إلى أهلِ الموسمِ كتابًا يُقرَأُ عليهم، وفيه الأمرُ بالإحسانِ إليهم، وإزالةُ (المظالمِ التي)(*) كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تحمدُوا على ذلك كُلِّهِ إلَّا اللَّهِ، فَإِنَّهُ لوْ وَكَلَنِي إِلَى نفسِي كنتُ كغيري»(١).

وحكايتُه مع المرأةِ التي طلبتْ منه أن يفرضَ لِبناتِها اليتامى مشهورةٌ، فإنها كانت لها أربعُ بناتٍ، ففرض لثنتينِ منهنَّ، وهي تحمدُ اللَّه، ثُم فرضَ للثالثةِ فشَكرتْهُ، فقالَ: إنَّمَا كنَّا نفرضُ لهنَّ حيثُ كنتِ تولينَ الحمدَ أهلَهُ، فمري هؤلاء الثلاثَ يُواسينَ الرابعة. أو كما قال - رضي اللَّه عنه.

وحاصل الأمر أراد أن يعرف أنَّ ذا الولايةِ إنما هو مُنتصِبٌ لتنفيذ أمرِ اللَّه، وآمرٌ العبادَ بطاعة اللَّه تعالى، وناهٍ لهم عن محارم اللَّه، ناصحٌ لعبادِ اللَّه بدُعائهم إلى اللَّه، فهو يقصد أن يكون الدينُ كُلُّه للَّه، وأن تكونَ العِزَّةُ للَّه وهو مع ذلك خائفٌ من التقصيرِ في حقوقِ اللَّه أيضًا.

فالمحبُّونَ للَّه غَايةُ مقاصدهم من الخلقِ أن يحبوا اللَّه ويُطيعوهُ، (ويفردوه)(**) بالعبوديةِ والإلهيةِ، فكيفَ من يزاحمُهُ في شيء من ذلك، فهو لا يريدُ من الخلقِ جزاءً ولا شُكُورًا، وإنما يَرجُو ثوابَ عمله من اللَّه كما قال اللَّه تعالى:

(*) مظالم: «نسخة».

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٩٣).

(**) من النسخة «ك» وباقي النسخ الثلاث: «ويعرفوه».

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّه الْكِتَابَ وَالْحُكمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّه﴾ الآيتين[1].

وقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فإنما أَنَا عَبد، فقولُوا: عبدَ اللَّه ورسُولهُ**»[2].

وكانَ ﷺ يُنكرُ على مَن لَا يتأدَّبُ معهُ في الخطاب بهذا الأدب، كما قال: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّه وَشَاءَ محمدٌ، بل قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّه ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»[3].

وقال لمن قال: مَا شاءَ اللَّه وشئتَ: «**أجعلتني للَّه ندًّا؟! بل ما شاءَ اللَّه وحدَهُ**»[4].

فَمِن هُنا كانَ خُلفاءُ الرُّسلِ وَأَتباعُهم مِن أُمراءِ العَدلِ وقُضاتِهم لَا يدعونَ إلى تعظيمِ نفوسهم البتَّةَ؛ بل إلى تعظيم اللَّه وحدَهُ وإفرادِهِ بالعُبوديةِ والإلهيةِ، ومنهم من كانَ لا يريدُ الولايةَ إلَّا للاستعانةِ بها على الدعوة إلى اللَّه وحدهُ.

وكان بعضُ الصالحينَ / يتولى القضاء ويقولُ: (أنا)(*) أتولاهُ لِأَستعينَ بهِ [ق٥/أ] على الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنكر.

ولهذا كانتِ الرسلُ وأتباعُهم يصبرونَ على الأذى في الدعوة إلى اللَّه، ويتحملونَ في تنفيذ أوامر اللَّه من الخلقِ غايةَ المشقةِ وهُم صابرونَ؛ بل رَاضُونَ

---

(١) آل عمران: ٧٩ - ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه أحمد (٥/٧٢، ٣٩٨)، وابن ماجه (٢١١٨) من حديث الطفيل بن سخبرة الأزدي. وأخرجه أحمد (٥/٣٨٤، ٣٩٤ و ٣٩٨)، وأبو داود (٤٩٨٠) من حديث حذيفة.

(٤) أخرجه أحمد (١/٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، وابن ماجه (٢١١٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٤٥) من حديث ابن عباس.

(*) من النسخة «ك» و«س» وفي النسخة «ع» إنما، وفي الأصل «ألا».

بذلك، فإن المحبَّ ربما يتلذذُ بما يُصيبهُ مِن الأذى في رضى مَحبوبهِ، كما كانَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ - رضي اللَّه عنهما - يقولُ لأبيهِ في خلافتهِ إذا حرصَ على تنفيذِ الحقِّ وإقامةِ العدلِ: يا أَبَتِ، لوَدِدْتُ أَنِّي غَلتْ بي وبكَ القُدورُ في اللَّه عزَّ وَجلَّ.

وقال بعضُ الصَّالحينَ: ودَدتُ أنَّ جسمي قُرِضَ بالمقاريضِ وأَنَّ هذا الخلقَ كُلَّهم أطاعُوا اللَّه عز وجل. فعُرِضَ قولُه على بعض العارفينَ، فقال: إن كانَ أرادَ بذلك النصيحةَ للخلقِ وإلَّا فلا أدري. ثم غُشِيَ عليهِ.

ومعنى هذا: أنَّ صاحبَ هذا القولِ قد يكونُ لحظٌّ نُصحِ الخلقِ والشفقةِ عليهم من عذابِ اللَّه (وأحبَّ)(*) أن يفدِيَهم من عذابِ اللَّه بأَذى نفسهِ، وقد يكونُ لحظٌّ جَلالِ اللَّه وعظمتِهِ وما يستحقُّهُ من الإجلالِ والإكرامِ والطَّاعةِ والمحبةِ، فَوَدَّ أنَّ الخلقَ قاموا بذلك، وإن حَصَلَ له في نفسهِ غايةُ الضررِ، وهذا هو مَشهدُ خواصِّ المُحبين العارفينَ بِمُلاحظتهِ فغُشِيَ على هذا الرجلِ العارفِ.

وقد وصف اللَّه - تعالى - في كتابه أن المحين له يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم.

وفي ذلك يقولُ بعضُهم:

أَجِدُ الْـمَـلَامَـةَ فِـي هَـوَاكَ لَـذِيـذَةً
حُـبًّـا لِـذِكْـرِكَ فَـلْـيَـلُـمْـنِـي الـلُّـوَّمُ

القسم الثاني:

طلبُ الشرفِ والعُلوِّ على الناس بالأُمور الدينيةِ، كالعلمِ والعملِ والزُّهدِ.

فهذا أفحشُ من الأولِ وأقبحُ وأشدُّ فسادًا وخطرًا، فإنَّ العلمَ والعملَ والزهدَ إنَّمَا يُطلبُ بها ما عند اللَّه من الدرجات العُلَى والنعيمِ المقيمِ ويطلب بها ما عند اللَّه والقربِ منهُ والزُّلفى لَديهِ(**).

(*) فأحب: «نسخة».

(*) لقربه: «نسخة».

قال الثوريُّ : إنَّما فُضِّلَ العلمُ ؛ لأَنَّهُ يُتقى به اللَّه ، وإلَّا كَانَ كسائر الأشياءِ .

فإذا طلبَ بشيءٍ من هذا عَرضَ الدنيا الفاني فهو - أيضًا - نوعانِ :

أحدهما : أن يطلبَ به المالَ ، فهذا من نوعِ الحرصِ على المالِ وطلبهِ بالأَسبابِ المحرَّمةِ .

وفي هذا الحديث عن النبيِّ ﷺ : «**مَنْ تعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبتغى به وجهُ اللَّه لا يتعلمُهُ إلَّا ليُصيبَ به عرض الدنيا لم يجدْ عرفَ الجنَّةِ يَوْمَ الْقيامةِ**» يعني : رِيحَها .

خرَّجهُ الإمامُ أحمد[1] ، وأبو داود[2] ، وابنُ ماجه[3] ، وابنُ حبانَ في «صحيحه»[4] من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ .

وسببُ هذا - واللَّه أعلمُ - أَنَّ في الدنيا جنةً مُعجَّلةً ، وهي معرفةُ اللَّه / [ق/ب] ومحبتُهُ ، والأُنسُ به والشَّوقُ إلى لقائِهِ ، وخشيتُهُ وطاعتُهُ ، والعلمُ النافعُ يدلُّ على ذلك ، فمن دلَّهُ علمهُ على دخول هذه الجنةِ المُعجَّلةِ في الدنيا دَخَلَ الجنةَ في الآخرةِ ، ومن لم يشُم رائحتَها لم يشُم رائحةَ الجنةِ في الآخرةِ .

ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة عالمٌ لم ينفعهُ اللَّه بعلمهِ ، وهو أشدُّ الناسِ حسرةً يومَ القيامةِ ، حيثُ كان معهُ آلةٌ يتوصَّلُ بها إلى أعلى الدَّرجاتِ وأَرفعِ المقاماتِ ، فلم يستعملها إلا في التوصُّل إلى أَخسِّ الأمورِ وأدناهَا وأحقرِهَا ، فهو كمن كان معهُ جواهرُ نفيسةٌ لها قيمةٌ ، فباعَها ببعر أو شيءٍ مستقذَرٍ لا يُنتفَعُ بهِ ، بل حالُ من يطلبُ الدنيا بعلمهِ ، أقبح وأقبحُ وكذلك من يطلبُها بإظهارِ الزهدِ فيها ، فإنَّ ذلكَ خداعٌ قبيحٌ جدًّا .

---

(١) في «المسند» (٢/٣٣٨) .
(٢) في «السنن» (٣٦٦٤) .
(٣) في «السنن» (٢٥٢ ، ٢٦٠) .
(٤) كما في «الإحسان» (٧٨) .

وكان أبُو سليمانَ الدَّارانيُّ يعيبُ على من لبس عباءةً، وفي قلبهِ شهوةٌ من شهواتِ الدنيا تساوي أكثر من قيمةِ العَباءة.

يشيرُ إلى أنَّ إظهارَ الزهدِ في الدنيا باللباس الدني إنما يصلحُ لمن فرغَ قلبهُ من التَّعلُّقِ بها، بحيثُ لا يتعلقُ قلبُهُ بها بأكثرَ من قيمةِ ما لبسهُ في الظاهرِ، حتى يستوي ظاهرُهُ وباطنُهُ في الفراغ من الدنيا.

وما أحسنَ قول بعض العارفينَ - وقد سُئلَ عن الصوفيِّ - فقال: الصُّوفيُّ.

مَنْ لبسَ الصُّوفَ علَى الصَّفَا وَسَلَكَ طَرِيقَ الْمُصْطَفَى
وَذَاقَ الْهَوَى بَعْدَ الْجَفَا وَكَانَتِ الدُّنْيَا مِنْهُ خَلْفَ الْقَفَا

النوع الثاني: مَن يطلبُ بالعمل والعلم والزهد الرياسة على الخلقِ والتعاظُمَ عليهم، وأن ينقادَ الخلقُ ويخضعونَ لهُ ويصرفُونَ وُجوههُم إليهِ، وأن يُظهرَ للناسِ زيادةَ علمهِ على العُلماءِ ليَعلوَ بهِ عليهم ونحو ذلك.

فهذا موعدُهُ النارُ؛ لأنَّ قَصْدَ التَّكبرِ على الخلقِ مُحرَّمٌ في نفسهِ، فإذا استعملَ فيهِ آلة الآخرةِ كان أقبحَ وأفحشَ من أن يستعملَ فيهِ آلاتِ الدنيا من المالِ والسلطانِ.

وفي «السنن» عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ يَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّه النَّارَ**».

خرجه الترمذيُّ[1] من حديث كعبِ بنِ مالكٍ.

وخرجه ابنُ ماجه من حديث ابن عمرَ[2] وحُذيفةَ[3] وعنده: «**فَهُوَ فِي النَّارِ**».

وخرج ابن ماجه[4]، وابن حبان في «صحيحه»[5] من حديث جابر، عن

---

(١) في «الجامع» (٢٦٥٤). قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم، تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظه.

(٢) في «السنن» (٢٥٣). قال في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضعف حماد وأبي كرب.

(٣) في «السنن» (٢٥٩) وفي «الزوائد»: إسناده ضعيف.

(٤) في «السنن» (٢٥٤). في «الزوائد»: رجال إسناده ثقات.

(٥) كما في «الإحسان» (٧٧).

النبي ﷺ قال: / «لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا لِتَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ؛ فمنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارَ النَّارَ». [ق٦/أ]

وخرَّجه ابنُ عدَي[1] من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، وزاد فيه: «وَلَكِنْ تَعَلَّمُوهُ لِوَجْهِ اللَّه والدَّارِ الآخِرَةِ».

وعن ابن مسعودٍ قال: «لَا تَعَلَّمُوا العلمَ لِثَلاثٍ: لِتُمارُوا بِهِ السُّفهاءَ، أَو لتُجَادلُوا بِهِ الْفُقهاءَ، أَو لِتَصرفُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيكُمْ، وابتغُوا بقوْلكُمْ وفعلكُمْ ما عندَ اللَّه؛ فإِنَّه يبقَى؛ وَيَفْنَى / مَا سِوَاهُ». [ق٦/ب]

وقد ثبتَ في «صحيح مسلم»[2] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، عن النبيِّ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ خلق تُسَعَّرُ بهمُ النَّارُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ ...» منهُمُ العَالمُ الذي قرأَ القُرْآنَ ليُقَالَ: قَارئٌ، وتعلَّمَ الْعلمَ ليُقَالَ عَالمٌ، وأَنَّهُ يُقالُ لهُ: قدْ قِيلَ ذَلكَ، وأُمرِ بهِ فسُحبَ على وجهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ. وذكر مثلَ ذلك في المُتصدِّق ليقال إِنَّهُ جَوادٌ، وفي المُجاهدِ ليُقالَ إِنَّهُ شُجاعٌ.

وعن علي رضي اللَّه عنه قال: يا حملةَ العِلم، اعملوا بهِ؛ فإنما العالمُ من عملَ بما عَلمَ، فوافقَ عملُهُ علمَهُ، وسيكون أَقوامٌ يحملونَ العلمَ لا يُجاوزُ تَراقِيهم، يُخالفُ عملَهم علمُهُم، وتخالفُ سريرتُهُم علانيتَهُم، يجلسونَ حلقًا حلقًا فيباهي بعضُهم بعضًا، حتى إنَّ الرجلَ ليغضبُ على جليسهِ إذا جلسَ إلى غيرهِ ويدعُهُ، أَولئكَ لا تصعدُ أعمالُهم في مجالسهِم تلكَ إلى اللَّه عز وجَل.

وقال الحسنُ: لا يكونُ حظُّ أحدِكُم من العلم أن يقال عالمٌ.

وفي بعض الآثارِ أَنَّ عيسى عليه السلامُ قال: «كيفَ يكونُ من أهلِ العلمِ من يطلبُ العلم ليُحَدِّثَ بهِ ولا يطلبُهُ ليعملَ به؟!».

---

(١) في «الكامل» (٢١٦/٧) ترجمة يحيىبن أيوب الغافقي. وقال عن هذا الحديث وغيره: غير محفوظين وأعل هذا الحديث بتفرد يحيى بن أيوب به عن ابن جريج.

(٢) برقم (١٩٠٥).

وقال بعضُ السلفِ : بَلغنا أنَّ الذي يطلبُ الأحاديثَ ليحدِّثَ بها لا يجدُ ريحَ الجنةِ ، يعني : من ليسَ له غرضٌ في طلبهَا إلَّا ليحدث بها دُون العملِ بها .

ومن هذا القَبيلِ كراهةُ السَّلفِ الصَّالحِ الجُرْأَة على الفُتيا والحرصَ عليها (والمنازعة)(*) إليها والإكثارَ منها .

وروى ابنُ لهيعةَ عن [عُبيد اللَّه](١) بن أبي جعفر مرسلًا ، عن النبي ﷺ قال : « **أجْرَؤُكُمْ على الْفُتْيَا أَجرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ** »(٢) .

وقال علقمة : كانوا يقولون : أَجرؤُكم على الفتيا أَقلُّكُم علمًا .

وعن البراءِ قال : « أَدركتُ مائة وعشرين من الأنصارِ من أصحابِ رسول اللَّه ﷺ يُسأَلُ أحدُهُم عن المسألَةِ مَا منهُمْ من أحد إِلَّا وَدَّ أن أخاهُ كَفاهُ » .

وفي روايةٍ : « فيرُدُّها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأوَّلِ » .

وعن ابنِ مَسعودٍ رضي اللَّه عنه قال : « إِنَّ الذي يُفتي الناسَ في كُلِّ ما يَسْتَفْتُونَهُ لمجنونٌ » .

وسُئِلِ عمرُ بنُ عبد العزيزِ عن مسألةٍ ، فقال : ما أَنا عَلى الفُتيا بِجَريءٍ .

وكتبَ إلى بعضِ عُمَّالِهِ : إِنِّي واللَّه مَا أَنا بِحَريصٍ على الفُتيا ، ما وَجدتُ منها بُدًّا .

وليسَ هذا الأمرُ لمن ودَّ أَنَّ الناسَ احتاجُوا إليهِ ، إِنما هذا الأمرُ لمن ودَّ أَنَّهُ وَجدَ من يَكفيهِ .

وعنهُ أنه قال : أَعلمُ الناسِ بالفتوى أَسكَتُهُم ، وأجهلُهُم بها أَنطقُهُم .

---

(١) في « الأصل » : عبد اللَّه . وهو خطأ ، والصواب « عبيد اللَّه » انظر « تهذيب الكمال » (١٥/ ٤٨٨) .

(٢) أخرجه الدارمي (١٥٧) .

(*) والمسارعة : « نسخة » .

وقال سفيانُ الثوريُّ رحمة اللَّه عليه : أَدركنا الفُقهاءَ وهُم يَكرهونَ أن يُجيبوا في المسائل والفُتيا حتى لا يَجِدوا بُدًّا من أن يُفتُوا ، وإذا أُعفُوا منهَا كانَ أَحبَّ إليهِم .

وقال الإمامُ أحمدُ رضي اللَّه عنه : مَن عرَّضَ نفسَهُ لِلفُتيا فقد عَرَّضَها لِأَمْرِ عَظيمٍ ، إِلَّا أَنَّهُ قد تُلجئُ الضرورةُ .

قيل له : فَأَيُّمَا أفضلُ ؟ الكلامُ أَمِ السُّكوتُ ؟

قال : الإمساكُ أحبُّ إليَّ .

قيل له : فإِذَا كَانتِ الضرورةُ ؟

فجعلَ يقولُ : الضرورةُ الضرورةُ ! وقالَ : الإمساكُ أَسلمُ لَهُ .

وليعلمِ المفتي أنهُ يوقعُ عن اللَّه أَمرهُ ونهيهُ ، وأنهُ موقوفٌ ومسئُولٌ عن ذلك .

قال الربيعُ بنُ خُثيمٍ : أيها المفتون ! انظُروا كيفَ تُفتون .

وقال عمرُو بنُ دينارٍ لقتادةَ لما جلس للفُتْيَا : تدري في أي عمل وقعت ، وقعت بين اللَّه وبين عباده وقلتَ : هذا يَصلحُ ، وهَذا لا يَصلحُ .

وعن ابن المُنكدرِ قال : إِنَّ العالمَ داخل بينَ اللَّه وبينَ خلقهِ ، فلينظُرْ كيفَ يدخلُ عليهم .

وكان ابنُ سيرينَ إذا سُئلَ عن الشيءِ من الحلالِ والحرامِ تغيرَ لونُهُ وتبدَّلَ ، حتى كأَنَّهُ ليسَ بالذي كانَ .

وكانَ النَّخعيُّ يُسأَلُ فتظهرُ عليهِ الكراهةُ ويقولُ : ما وجدتَ أحدًا تسأل غيري ؟! وقالَ : قَد تكلَّمتُ ولو وجدتُ بُدًّا مَا تكلمتُ ، وإنَّ زمانًا أكونُ فيه فقيهَ الكُوفةِ لزمانُ سُوءٍ .

ورُوِيَ عن عمر قال : إِنَّكم لتستفتوننا استفتاءَ قومٍ كأَنَّا لا نسألُ عمَّا نُفتيكم بهِ .

وعن محمدِ بن واسعٍ قال : أَوَّلُ من يُدعى إلى الحسابِ الفُقهاءُ .

وعن مالكٍ أنه كانَ إذا سُئِلَ عن المسألةِ كأنهُ واقفٌ بين الجنةِ والنَّارِ.

وقال بعضُ العلماءِ لبعضِ المُفتينَ: إذا سُئلْتَ عن مَسألةٍ فلا يَكُنْ همُّكَ تخليصَ السائل، ولكن تخليصَ نفسكَ أَوَّلًا.

وقال لِآخرَ: إِذَا سُئلتَ عن مسألةٍ فتفكَّر؛ فإن وجدتَ لنفسك مخرجًا فتكلَّم وإلا فاسْكُتْ.

وكلامُ السلفِ في هذا المعنى كثيرٌ جدًّا يطولُ ذكرُه واستِقْصَاؤهُ.

[ق٧/أ] / ومِنَ هذا البابِ أيضًا كراهةُ الدُّخولِ على المُلوكِ والدُّنُوِّ منهُمْ، وهُوَ البَابُ الذي يدخُلُ منهُ عُلماءُ الدُّنيا إلى نيلِ الشرفِ والرياساتِ فيها.

وخرج الإمام أحمدُ[1]، وأبو داود[2]، والترمذيُّ[3]، والنسائي[4] من حديث ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ**».

وخرج أحمد[5]، وأبو داود[6] نحوه من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ وفي حديثه: «**وَمَا ازْدَادَ أَحَدٌ مِنَ السُّلْطَانِ دُنُوًّا إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا**».

وخرج ابن ماجه[7] من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أُنَاسًا مِنْ أُمَّتِي سَيَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَقُولُونَ: نَأْتِي الْأُمَرَاءَ فَنُصِيبُ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَنَعْتَزِلُهُمْ بِدِينِنَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الْقَتَادِ إِلَّا الشَّوْكُ، كَذَلِكَ لَا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ إِلَّا الْخَطَايَا**».

---

(١) (١/٣٥٧).

(٢) برقم (٢٨٥٩).

(٣) برقم (٢٢٥٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من حديث الثوري

(٤) برقم (٤٣٢٠).

(٥) (٢/٣٧١، ٤٤٠).

(٦) برقم (٢٨٦٠).

(٧) برقم (٢٥٥). قال في «الزوائد»: إسناده ضعيف، وعبيد الله بن أبي بردة لا يعرف.

وخرجه الطبرانيُّ[1] ولفظُه: «إِنَّ أُنَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ يَأْتِيهُمُ الشَّيْطَانُ يَقُولُ: لَو أَتَيْتُمُ الْمُلُوكَ فَأَصَبْتُمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَاعْتَزَلْتُمُوهُمْ بِدِينِكُمْ، أَلَا وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الْقَتَادِ إِلَّا الشَّوْكُ، كَذَلِكَ لَا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ إِلَّا الْخَطَايَا».

وخرَّجَ الترمذيُّ[2] من حديث أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحَزَنِ. قَالُوا: وَمَا جُبُّ الْحَزَنِ؟! قال: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَنْ يَدْخُلُهُ؟ قَالَ: الْقُرَّاءُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ».

وخَرَّجَ ابن ماجه[3] نحوه، وزاد فيه: «وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الْقُرَّاءِ إِلَى اللَّه الَّذِينَ يَزُورُونَ الْأُمَرَاءَ الْجَورَةَ».

ويُروى من حديث علي[4]، عن النبي ﷺ نحوُه.

ومِنْ أَعظمِ ما يُخشى عَلى من يَدخلُ على المُلوكِ الظلمة أَن يُصدِّقَهم بِكَذِبهم، ويُعينَهُم على ظُلمهم ولو بالسكوتِ عن الإنكارِ عليهم، فإنَّ من يُريدُ بدُخولهِ عليهم الشَّرفَ والرِّياسةَ - وهو حريصٌ عليهم - لَا يقدمُ على الإنكارِ عليهم؛ بل رُبَّما حَسَّن لهم بعضَ أفعالهم القبيحة تقربًا إليهم لِيحسُنَ موقعُهُ عندهُم، ويُساعدُوه على غرَضِهِ.

وقد خَرَّج الإمامُ أحمدُ[5]، والترمذيُّ[6]، والنسائي[7]، وابن حبانَ في «صحيحه»[8] من حديثِ كعبِ بن عُجرةَ، عن النبي ﷺ قال: «سيكونُ

---

(١) في «الأوسط» (٨٢٣٦). قال الطبراني: لا يروى هذا الحديث عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد، تفرد به هشام بن عمار.

(٢) في «الجامع» (٢٣٨٣). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) في «السنن» (٢٥٦).

(٤) أخرجه العقيلي (٢/٢٤١-٢٤٢)، وابن عدي (٤/١٣٩). وفي إسناده «أبي بكر الداهري» قال عنه العقيلي حدث بأحاديث لا أصل لها ويحيل على الثقات، وذكر العقيلي هذا الحديث منها. وقال ابن عدي عن هذا الحديث: باطل.

(٥) في «المسند» (٤/٢٤٣).

(٦) في «الجامع» (٢٢٥٩). قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه من حديث مسعر إلا من هذا الوجه.

(٧) في «السنن الصغرى» (٤٢٠٧). (٨) كما في «الإحسان» (٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥).

بعدي أُمراءُ ؛ فمن دخلَ عليهمْ فصدَّقهُم بكذِبهِم وأَعانهُم على ظُلمهم فليس مني ولستُ منهُ / وليس بواردٍ عليَّ الحوضَ ، ومن لم يدخُلْ عليهِمْ ولم يُعنهُم على [ق٧/ب] ظلمهم ولم يُصدِّقْهُمْ بِكَذِبهم فهو منِّي وأنا منهُ ، وهو وارِدٌ عليّ الحوضَ » .

وخرج الإمامُ أحمدُ[1] معنى هذا الحديث من حديث حذيفةَ ، وابن عُمرَ ، وخبَّابِ بنِ الأرتِّ ، وأبي سعيد الخُدريِّ ، والنُّعمانِ بنِ بشيرٍ - رضي اللَّه عنهم .

وقد كان كثير من السلفِ ينهونَ عن الدخولِ على الملوكِ لمن أراد أمرهُم بالمعروفِ ونَهيهُم عن المنكر أيضًا .

وممَّن نهى عن ذلك : عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وابنُ المباركِ والثَّوريُّ وغيرُهم من الأئمةِ .

وقال ابنُ المُباركِ : ليسَ الآمرُ الناهِي عندَنا من دَخلَ عليهم فأمرهُم ونهاهُم ، إنما الآمرُ الناهي من اعتزلهُم .

وسببُ هذا ما يُخشَى من فتنةِ الدخولِ عليهم ؛ فإنَّ النَّفسَ قد تُخيِّلُ للإنسانِ إذا كانَ بعيدًا عنهُم أنهُ يأمرُهم وينهاهُم ويغلِّظُ عليهِم ، فإذا شاهدهُم قريبًا مالتِ النَّفسُ إليهم ؛ لأنَّ محبةَ الشرفِ كامنة في النفسِ ، (والنفسُ تحُسِّنُ له ذلك و)[*] مداهنتهم وملاطفتهم ، وربما مالَ إليهم وأحبَّهُم ، ولا سيما إن لاطفُوهُ وأكرموهُ وقبل ذلك منهم ، وقد جرى ذلك (لابن طاوسٍ)[**] مع بعض الأُمراءِ بحضرةِ أبيهِ طَاوسٍ فوبَّخَهُ طاوسٌ على فعلهِ ذلكَ .

وكتبَ سُفيانُ الثوريُّ إلى عبَّادِ بن عَبَّادٍ ، وكانَ في كتابهِ :

« إيَّاكَ وَالأُمراءَ أن تدنُو منهم أو تُخالطهم في شيءٍ من الأشياءِ ، وإياكَ أن تُخدَعَ ويقالُ لك : لتشفعَ وتدرأَ عن مظلومٍ أو تردَّ مظلمةً ؛ فإن ذلك خديعةُ

---

(١) في « المسند » (٢/٩٥) ، (٣/٢٤ ، ٩٢) ، (٤/٢٦٧-٢٦٨) ، (٥/١١١، ٣٨٤) ، (٦/٣٩٥) .

(*) لمحبة النفس له ، ولذلك : « نسخة » .

(**) لعبد اللَّه بن طاوس : « نسخة » .

إبليسَ ، وإنما اتَّخذها فُجَّارُ القُرَّاءِ سُلمًا ، وما كُفيتَ من المسألةِ والفُتيا فاغتنم ذلك ولا تُنافسهم ، وإياكَ أن تكونَ كمن يُحبُّ أن يُعملَ بقولهِ أو يُنشر قولهُ أو يُسمع قولُهُ ، فإذا تُركَ ذلك منه عُرفَ فيه ، وإياك وحُبَّ الرئاسة ، فإنَّ الرجلَ يكونُ حُبُّ الرئاسةِ أحبَّ إليه من الذهب والفضَّةِ ، وهو بابٌ غامضٌ لا يُبصرُهُ إلَّا البصيرُ من العُلماءِ السَّماسرةِ ، فتفقَّد بقلبٍ واعمل بنيَّةٍ ، واعلم أنَّه قد دنا من النَّاسِ أمرٌ يشتهي الرجلُ أن يموتَ ، والسلامُ » .

ومن هذا البابِ أيضًا كراهةُ أن يُشهرَ الإنسانُ نفسهُ للناسِ بالعلم والزهدِ والدِّينِ ، أو بإظهارِ الأعمالِ والأقوالِ والكراماتِ ليزار وتُلتمَسَ بركتُهُ ودُعاؤُه ، وتقبيل يدُهُ وهُو مُحبٌّ لذلكَ ويُقيمُ عليهِ ويفرحُ به أو يَسعى في أسبابهِ .

/ ومن هنا كانَ السلفُ الصالحُ يكرهونَ الشُّهرةَ غايةَ الكَراهةِ ، منهُم : [ق٨/أ] أيوبُ والنخعيُّ وسفيانُ وأحمدُ وغيرُهم من العلماءِ الربَّانيينَ ، وكذلك الفُضَيلُ وداود الطَّائيُّ وغيرُهما من الزُّهَّادِ والعارفينَ ، وكانوا يذُمُّونَ أنفسهُم غايةَ الذمِّ ويسترون أعمالهُم غايةَ السِّترِ .

دخلَ رجلٌ على داودَ الطائيِّ فسألهُ ما جاء به ؟ فقال : (جئت)(*) أزورك . فقال : أمَّا أنتَ فقد أصبتَ خيرًا حيثُ زُرتَ في اللَّه ، ولكن أنا أنظرُ ماذا لقيتُ غدًا إذا قيل لي : من أنتَ حتَّى تُزارَ ؟ من الزُّهَّادِ أنتَ ؟ لَا واللَّه . من العُبَّادِ أنتَ ؟ لَا واللَّه . من الصالحينَ أنت ؟ لَا واللَّه ... وَعدَّدَ خصالَ الخيرِ على هذا الوجهِ ، ثُمَّ جعَل يُوبِّخُ نفسُه ، فيقول : يا دَاودُ ! كنتَ في الشَّبيبةِ فاسقًا ، فلمَّا شِبتَ صِرتَ مُرَائِيًا ، والمُرَائي أشرٌّ من الفَاسقِ .

وكان محمدُ بنُ واسعٍ يقولُ : لو أنَّ للذنوبِ رائحةً ما استطاعَ أحدٌ أَن يُجَالِسَني .

وكان إبراهيمُ النَّخعيُّ إذا دخلَ عليهِ أحدٌ وهو يقرأُ في المصحفِ غَطَّاهُ .

(*) أحب أن : « نسخة » .

وكانَ أُويسٌ وغيرُه من الزُّهَّادِ إذا عُرفوا في مكَانٍ ارتحلُوا عنهُ.

وكان كثيرٌ منَ السلفِ يَكرهُ أن يُطلَبَ منهُ الدُّعاءُ، ويقولُ لمن يسألُهُ الدُّعاء: أَمِنِّي أنا؟!

ومِمَّنْ رُويَ عنهُ ذلك عمرُ بنُ الخطابِ وحذيفةُ بن اليمان رضي اللَّه عنهما، وكذلك مالكُ بنُ دينارٍ.

وكان النخعيُّ يكرهُ أن يُسألَ الدُّعاء.

وكتبَ رجلٌ إلى أحمدَ يسألُهُ الدعاءَ فقال أحمدُ: إذا دعونا نحنُ لهذا، فمن يدعُو لَنا؟!

وَوُصفَ بعضُ الصالحينَ واجتهادَهُ في العبادةِ لبعضِ المُلوكِ فَعزمَ على زيارتهِ، فبلغَهُ ذلكَ فجلسَ على قَارِعةِ الطريقِ يأكُلُ، فَوافَاهُ الملكُ وهُو على تِلكَ الحالةِ، فَسلَّمَ عليهِ، فَردَّ عليهِ السلامِ، وجعل يأكلُ أكلًا كثيرًا ولا يَلتفتُ إلى الملكِ، فقال الملكُ: ما في هذا خيرٌ، ورَجعَ. فقال الرجلُ: الحمدُ للَّه الذي رَدَّ هذا عَنِّي وهو لائمٌ.

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا.

وها هنا نُكتةٌ دقيقة، وهي أن الإنسانَ قد يذُمُّ نفسهُ بين الناسِ يُريدُ بذلك أن يُرِي أَنه مُتواضعٌ عندَ نفسهِ، فيرتفعُ بذلكَ عندَهُم ويمدحُونَهُ بهِ، وهذا من دَقائقِ أبوابِ الرِّياءِ وقد نَبَّه عليهِ السلفُ الصالحُ.

قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللَّه بن الشِّخِّير: كَفى بالنفس إِطراءً أَن تَذُمَّهَا على الملأ، كأنك تُريدُ بذمِّها زينتَهَا، وذلك عند اللَّه سَفَهٌ.

* * *

فصـــل

وقد تبينَ بما ذكرنا أن حبَّ المال والرياسةِ / والحرصِ عليهما يُفسدُ دينَ المرءِ [ق٨/ب] حتى لا يبقى منهُ إلا ما شاءَ اللَّه، كما أخبرَ بذلك النبي ﷺ.

وأَصلُ محبةِ المال والشرفِ: من حُب الدنيا، وأصل حُبِّ الدنيا اتِّباعُ الهوى.

قال وهبُ بنُ مُنبِّه: من اتِّباع الهوى الرغبةُ في الدنيا، ومن الرغبةِ فيها حُبُّ المالِ والشرفِ، ومِن حُبِّ المالِ والشرفِ استحلالُ المحارمِ.

وهذا كلامٌ حَسَنٌ؛ فإنه إنما عُتِبَ على صاحبِ المالِ والشرفِ الرغبةَ في الدنيا، وإنما تَحصُلُ الرغبةُ في الدنيا من اتِّباع الهَوى؛ لأنَّ الهوى دَاعٍ إلى الرغبةِ في الدنيا وحُبِّ المالِ والشرفِ فيها، والتقوى تمنعُ من اتِّباعِ الهوى وتردعُ عن حُبِّ الدنيا.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1].

وقَد وَصفَ اللَّه تعالى أَهلَ النارِ بالمالِ والسلطانِ في مَوَاضِعَ مِن كِتابِهِ، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[2].

واعلمْ أَنَّ النَّفْسَ تُحبُّ الرِّفعَةَ والعُلوَّ على أَبناءِ جنسِهَا، وَمن هُنا نشأَ الكِبرُ والحسدُ، ولكن العاقلَ يُنافسُ فِي العُلوِّ الدائم الباقي الذي فيهِ رضوانُ اللَّه وقُربُهُ وجِوارُهُ، ويَرغَبُ عن العُلوِّ الفاني الزَّائلِ، الذي يعقُبُهُ غَضبُ اللَّه وَسخطُه، وانحطاطُ العبدِ وسُفولُه وبعدُهُ عَن اللَّه وطردُهُ عنه، فهذا العُلوُّ الفاني الذي يُذَمُّ، وهو العتُوُّ والتكبرُ في الأرض بغيرِ الحَقِّ.

---

(١) النازعات: ٣٧ - ٤١.

(٢) الحاقة: ٢٥ - ٢٩.

وأما العُلوُّ الأوَّلُ والحرصُ عليهِ فهو محمودٌ.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1].

وقال الحسن: إِذَا رَأَيتَ الرَّجلَ يُنافسكَ في الدنيا فنافِسْهُ في الآخرةِ.

وقال وُهَيبُ بنُ الوَرْدِ: إِن استطعتَ أَن لَا يسبقَكَ إلى اللَّه أَحدٌ فافعلْ.

وقالَ محمدُ بنُ يوسفَ الأصبهانيُّ العابدُ: لو أَنَّ رجلًا سَمِعَ برجلٍ أو عَرفَ رجلًا أطوعَ للَّه منهُ فَانصدعَ قلبُهُ لم يكن ذلكَ بِعجبٍ.

وقال رجلٌ لمالكِ بن دينارٍ: رأيتُ في المنام مناديًا يُنادي: أيها الناسُ، الرحيل، الرحيلَ، فَما رأيتُ أحدًا ارتحل إلا محمدُ بنُ واسعٍ، فصاحَ مَالكٌ وغُشِيَ عليهِ.

ففي دَرجاتِ الآخرةِ الباقيةِ يَشرُعُ التنافسُ وطلبُ العُلوِّ في مَنازِلِها، والحرصُ [ق٩/أ] على ذلك بالسعي في أسبابِهِ، وأن لا يقنع الإنسانُ منها بالدُّونِ / مَع قُدرتِهِ عَلى العُلوِّ.

وأما العلوُّ الفاني المُنقطعُ الذي يعقب صاحبَهُ غدًا حَسرةً وندامةً وذِلَّةً وهَوانًا وصغارًا، فهو الذي يشرعُ الزهدُ فيه والإِعراضُ عنهُ.

وللزهدِ فيه أسبابٌ عديدةٌ:

فمنها: نظرُ العبدِ إلى سُوءِ عاقبةِ الشرفِ في الدنيا بالولايةِ والإمارةِ لمن لا يُؤدِّي حقَّها في الآخرةِ، ومنها: نظر العبد إلى عُقوبةِ الظَّالمينَ والمكذبين، ومن يُنازعُ اللَّه رِدَاء الكبرياءِ.

وفي «السُّنن» عن النبي ﷺ قال: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولُسَ، تَعْلُوهُمُ نارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ: طِينَةَ الخَبَالِ**».

---

(١) المطففين: ٢٦.

وخرجه الترمذيُّ[1] وغيرُه[2] من حديثِ عمرِو بنِ شُعَيبٍ، عن أبيهِ، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ.

وفي روايةٍ لغيرِهِ منْ وَجهٍ آخَرَ في هذا الحديث: «**يطؤهم الناس بأقدامهم**».

وفي رواية أخرى من وجه آخر: «**يَطَؤُهُم الْجِنُّ وَالْإِنْسن وَالدَّوَابُّ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّه بَيْنَ عِبَادِهِ**».

واستأذنَ رَجلٌ عُمرَ - رضي اللَّه عنه - في القَصصِ على الناس فقال له: إني أَخافُ أن تَقُصَّ عليهم فترتفع عَليهِم فِي نَفسكِ حَتَّى يَضَعَكَ اللَّه تَحْتَ أَرْجُلهِمْ يَومَ القيامةِ.

ومِنها: نَظرُ العبدِ إلى ثَوابِ المْتواضعينَ للَّه في الدُّنيا بالرِّفعةِ في الآخرةِ؛ فإنه من تواضعَ للَّه رفَعَهُ.

ومنها - وَلَيس هُو في قُدرَةِ العبدِ، ولكنَّهُ من فضلِ اللَّه ورَحمتِهِ -: مَا يُعوِّضُ اللَّه عِبادهُ العارفين به، الزاهدينَ فيمَا يفنى مِنَ المالِ والشرفِ، مِمَّا يُعجِّلُهُ اللَّه لهم في الدنيا مِن شرفِ التَّقوى وهيبةِ الخلقِ لهم في الظَّاهرِ، ومن حلاوةِ المعرفةِ والإيمان والطَّاعةِ في الباطن.

وهي الحياةُ الطيِّبةُ التي وعدهَا اللَّه لمن عَمِلَ صالحًا من ذكرٍ أو أُنثى وهُو مُؤمنٌ، وهذهِ الحياةُ الطيبةُ لم يذُقها الملوكُ في الدنيا ولا أَهلُ الرئاساتِ والحرصِ على الشرفِ، كما قالَ إبراهيمُ بنُ أَدهمَ.

لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالدونا عليهِ بالسيوفِ.

ومن رزقهُ اللَّه ذلك اشتغلَ به عن طلبِ الشرفِ الزائلِ والرئاسةِ الفانية.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[3].

---

(١) في «الجامع» (٢٤٩٢). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وانظر تخريج هذا الحديث في كتابي «أهوال النار» باب «سجن النار».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/١٧٩)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨٨٠٠).

(٣) الأعراف: ٢٦.

وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[1].

وفي بعض الآثار: يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: «أَنَا العَزيزُ؛ فمن أرادَ العزّ فليُطِعِ العَزِيزَ، وَمَن أَرادَ عزَّ الدّنيا وَالآخِرةِ وشرفهما فَعليهِ بالتَّقْوَى».

[ق٩/ب] وكان حجاج بن أرطاةَ / يقولُ: قَتلني حُبُّ الشرفِ. فقالَ لهُ سَوَّارٌ: لَوِ اتقيتَ اللَّه شَرفتَ.

وفي هذا المعنى يقول القائل شعرًا:

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ والْكَرَمُ
وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ والسَّقَم
وَلَيسَ على عَبْدٍ تقيٍّ نقيصَةٌ
إِذَا حَقَّقَ التَّقوَى وَإِنْ حَاكَ أَو حَجَم

وقال صالحٌ الباجيُّ: الطاعةُ إمرةٌ والمُطِيعُ للَّه أَميرٌ مُؤَمَّرٌ عَلى الأُمراءِ، أَلا تَرَى هَيبَتَهُ في صُدورِهِم، إِن قَالَ قَبِلُوا، وإِن أَمر أَطاعُوا، ثم يَقولُ: يَحقُّ لمن أَحسنَ خِدمتَكَ وَمننتَ عليهِ بمَحَبَّتِكَ أن تُذْلِلَ له الجبابرةَ حتَّى يَهَابوهُ لهيبتهِ في صُدورهم من هيبتَكَ في قلبهِ، وكُلُّ الخيرِ من عندكَ بأوليائكَ.

وقال بعضُ السلفِ الصالحِ: مَنْ أَسعدُ بالطاعةِ مِنْ مُطيعٍ؟ أَلَا وَكُلُّ الخيرِ في الطاعةِ، أَلا وإِنَّ المُطيعَ للَّه مَلِكٌ في الدنيا والآخرةِ.

وقال ذو النون: مَن أكرمُ وأَعزُّ مِمَّن انقطَعَ إلى مَنْ مَلكَ الأَشياءَ بيدهِ؟

دَخلَ محمدُ بنُ سُليمانَ أَميرُ البصرةِ على حمادِ بنِ سلمةَ وقعدَ بين يديهِ يسأَلُهُ فقال له: يا أَبا سلمة، مَا لي كلما نظرتُ إليكَ ارتعدتُ فرقًا منكَ؟ قال: لأَنَّ العالمَ إِذَا أَرادَ بعلمه وجهَ اللَّه خافَهُ كلُّ شيءٍ، وإِنْ أَرادَ أن يُكثِّرَ بهِ الكُنوزَ خافَ مِن كلِّ شيءٍ.

---

(١) فاطر: ١٠.

ومِن هذا قولُ بعضهم: على قَدرِ هيبتكَ للَّه يخافُك الخلقُ، وعلى قدرِ محبَّتِكَ للَّه يُحبُّكَ الخلقُ، وعلَى قدرِ اشتغالِكَ باللَّه تَشتغلُ الخلقُ بأَشغالِكَ.

وكان عمرُ بن الخطابِ - رضي اللَّه عنه - يَومًا يمشي ووَراءَهُ قومٌ من كبارِ المهاجرين، فالتفتَ فرَآهم فخَروا على رُكبهم هيبةً لهُ، فبكى عمرُ وقال: اللَّهمَّ إنك تعلمُ أني أخوفُ لك منهُم؛ فاغفر لي.

وكان العُمَريُّ الزاهد قد خرجَ إلى الكوفةِ إلى الرشيدِ ليعظَهُ وينهاه؛ فوقعَ الرعبُ في عسكرِ الرشيدِ لما سَمِعوا بنزوله، حتى لو نَزلَ بهم عَدوٌّ مِائةُ أَلفِ نفسٍ لما زَادُوا على ذَلك.

وكان الحسنُ لَا يستطيعُ أحدٌ أن يسألَهُ هيبةً له، وكان خواصُّ أصحابهِ يجتمعونَ ويطلبُ بعضُهم مِن بَعضٍ أن يسألوه عن المسألةِ، فإذا حَضروا مَجلسَهُ لم يَجسرُوا على سؤالهِ، حتى رُبما مكثُوا على ذلك سَنةً كاملةً هَيبةً له.

وكَذلك كانَ مالكُ بنُ أَنسٍ يُهابُ أَن يُسأَلَ، حتى قالَ فيهِ القائلُ شعرًا:

يَدَعُ الْجَوَابَ وَلَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً
وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى
فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذا سُلْطَانِ

وكان يزيد العُقيليُّ يقول: من أرادَ بعلمه وجهَ اللَّه تعالى أقبلَ اللَّه عليهِ بوَجهِهِ وأقبلَ بقلوبِ العبادِ عليه، ومن عملَ لغيرِ اللَّه صرفَ اللَّه وجهَهُ عنهُ وصرفَ قلوبَ العبادِ عنه.

وقال محمدُ بنُ واسعٍ: إِذَا أقبلَ العبدُ بقلبهِ على اللَّه أَقبلَ اللَّه عليهِ بقلوبِ المُؤمنينَ.

[ق١٠/أ] / وقَال أبُو يزيدَ البَسْطَاميُّ : طَلَّقْتُ الدنيا ثلاثًا بتاتًا ، لا رجعةَ لِي فيها ، وصرتُ إلى ربي وحدي ، ونَاديتُهُ بالاستعانةِ : إلهي ، أدعُوكَ دُعاءَ من لم يَبْقَ لهُ غيرُكَ . فلما عَرفَ صِدقَ الدُّعاءِ من قلبي واليأسَ مِن نَفسي كَانَ أَوَّلُ ما وردَ عليَّ من إجابةِ هذا الدُّعاءِ أن أنساني نَفسي بالكُلية ، ونَصبَ الخَلَائقَ بين يدي مع إعراضي عنهم .

وكَانُ يُزارُ مِن البُلدانِ ، فلما رأَى ازدحامَ الناسِ عليهِ قال :

وَلَـيْـتَنِي صِـرْتُ شَـيْـئًـا مِـنْ غَـيْـرِ شَـيْءٍ (أَعُـد)(*)
أَصْـبَـحْـتُ لـلـكـل مَـوْلَـى لِأَنَّـنِـي لَـكَ (عَـبْـد)(*)
وَفِــي الْـفُـؤَادِ أُمُـورٌ مَـا تُـسْـتَـطَـاعُ تُـعَـد
لَـكِـنْ كِـتْـمَـانُ حَـالِـي أَحَـقُّ بِـي (وَأَشَـد)(*)

كَتبَ وهبُ بنُ مُنبِّهٍ إلى مَكحولٍ : أَمَّا بعدُ ، فإنكَ أصبتَ بظاهرِ علمكَ عندَ الناسِ شَرفًا ومنزلةً ، فاطلُبْ بباطنِ علمكَ عندَ اللَّه منزلةً وزُلْفَى ، واعلمْ أنَّ إحدَى المنزلَتينِ تمنعُ من الأخرى .

ومعنى هَذا أَنَّ العلمَ الظاهرَ من تعلُّم الشَّرائعِ والأحكامِ ، والفَتاوى والقَصص والوَعظِ ونحوِ ذلك مما يظهرُ للناسِ يَحصلُ بهِ لصاحبهِ عندَهُم منزلةٌ وشرفٌ ، والعلمُ الباطنُ المودَعُ في القلوبِ من معرفةِ اللَّه وخشيتِهِ ، ومحبتِهِ ومُراقبتِهِ ، والأنسِ بهِ والشوقِ إلى لقائِهِ ، والتوكلِ عليهِ والرِّضى بقضائِهِ ، والإعراضِ عن عَرَضِ الدنيا الفاني ، والإقبالِ على جَوهرِ الآخرةِ الباقي ، كلُّ هذا يوجبُ لصاحبهِ عندَ اللَّه منزلةً وزُلْفَى ، وإحدَى المنزلتينِ تمنعُ من الأُخرى .

فمن وقفَ مع منزلتِهِ عندَ الخلقِ ، واشتغلَ بما حَصلَ لهُ عندَهم بعلم الظاهرِ من شرفِ الدنيا ، وكان همُّهُ حِفظَ هذهِ المنزلةِ عندَ الخلقِ وملازَمتَهَا وتربيتها

---

(١) من « لك » وفي باقي النسخ الثلاث الأخرى بزيادة الألف بعد الدال .

والخوفَ من زَوَالِها كانَ ذلكَ حظَّهُ من اللَّه وانقطَعَ به عنهُ، فهو كما قالَ بعضُهم: ويلٌ لِمَن كانَ حَظُّهُ مِن اللَّه الدنيا.

وكان السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ يعجب مما يَرى من علمِ الجُنَيدِ وحُسنِ خطابِهِ وسُرعةِ جَوابِهِ فقالَ لَه يَومًا - وقَد سألَهُ عن مَسألةٍ فَأجابَ وأَصابَ -: أَخشَى أن يكونَ حظَّكَ من الدنيا لسانك. فكانَ الجُنيدُ لَا يزالُ يَبكِي من هذهِ الكلمةِ.

ومَن اشتغلَ بتَربيةِ منزلتِهِ عندَ اللَّه بما ذكرنا من العلمِ الباطنِ وَصلَ إلى اللَّه، فاشتغلَ بهِ عمَّا سواهُ، وكانَ لهُ في ذلكِ شُغُلٌ عن طلبِ المنزلةِ عندَ الخلقِ، ومع هذا، فإنَّ اللَّه يُعطيهِ المنزلةَ في قُلوبِ الخلقِ والشرفَ عندَهم، وإن كان لا يريدُ ذلك ولا يَقفُ معهُ؛ بل يَهرَبُ منهُ أَشدَّ الهربِ ويفِرُّ أَشدَّ الفِرَارِ؛ خشيةَ أن يقطعَهُ الخلقُ عن الحقِّ جلَّ جَلالُهُ.

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[1].

أي: في قلوبِ عِبادِهِ.

وفي حديثٍ: «**إِنَّ اللَّه إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ**».

والحديثُ مَعروفٌ، وهُو مُخرّج في «الصحيح»[2].

/ وبكُلِّ حالٍ؛ فطلبُ شرف الآخرةِ يَحصلُ معه شرف الدنيا، وإن لم يُرِدْهُ [ق١٠/ب] صاحبُهُ ولم يطلُبهُ، وطلبُ شرف الدُّنيا يمنع شَرفَ الآخرةِ ولا يَجتمعُ معهُ، والسعيدُ من آثَرَ الباقي على الفاني، كما في حديثِ أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، ومَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى**».

---

(١) مريم: ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩).

خرجهِ الإمام أحمد[1] وغيره[2].

وما أَحسنَ ما قال أبو الفتح البُسْتِيُّ:

أَمْرَانِ مُفْتَرِقَانِ لَسْت تَرَاهُمَا
يَتَشَوَّقَانِ لِخلطة وَتَلَاقِي
طَلَبُ الْمَعَادِ مَعَ الرِّيَاسَةِ وَالْعُلَى
فَدَعِ الَّذِي يَفْنَى لِمَا هُوَ بَاقِي

تم الكلام على شرح الحديث، والحمد للَّه على كل حال، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) في «المسند» (٤/٤١٢).

(٢) أخرجه أيضًا عبد بن حميد في «مسنده» (٥٦٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤١٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٣٠٨)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٣/٣٧٠). وصححه الحاكم.